



إن موضوع صورة الله في الإنسان من المواضيع الحساسة والشائكة جداً والبحث فيه عويص. وقد سلخ المفكرون والفلاسفة السنين الطوال في البحث فيه ومحاولة فك هذا اللغز العجيب. قال أحد اللاهوتيين: «لا يوجد في العالم اليوم جدل أساسي كالجدل الدائر حول طبيعة الإنسان. إن الإنسان حقاً لغزٌ وسرٌّ من أسرار الله العجيبة».

والمأمل في الكتاب المقدس، يجد أن الإنسان يستحوذ على أكبر قسم منه. فالدور الكبير يدور حوله والأحداث تتجمع صوبه.

الإنسان هذا القزم تجتمع فيه كل التناقضات. فهو أضعف المخلوقات، لكنه يسود عليها جميعاً. فهو الوحيد بين الحيوانات الذي يحتاج لمن يعوله، ولا يستطيع العيش دون عناية الأبوين بعد الولادة، إذ يحتاج لسنوات عديدة كي يعتمد على نفسه، ومع ذلك فهو جبار. يحكم كل الأشياء ولكنه غائص في الجهل والغموض. فهو ملاك وشيطان في آن واحد. وكما قال احدهم: «إنه إذا ارتفع الإنسان ليصير ملاكاً، فكن على يقين بأنه لا بد أن يهوى ليصير شيطاناً».

فلنتأمل أولاً في نظرة الإنسان في نفسه. وهاكم موجزاً عن بعض آراء الفلاسفة في الإنسان.

المادية

أولاً نظرية ديمقريطس (470-361) التي تقول بأن كل ما في الكون يتكون من ذرات يفصل بينها الفراغ. ولهذه الذرات أشكال متعددة. فمنها ما هو مستطيل، ومنها ما هو مربع، ومنها ما هو مكعب، ومنها ما هو هرمي وأكملها المستدير. كما أن هناك الذرات الملونة كالتي تتلألأ في الماء، والذرات الرائحة كالتي تتصاعد مع الدخان أو الهواء. والإنسان في نظرهم هو نتاج التفاعل الذري، أي أن الذرات العديدة تتشابك بنتوأتها فتتألف في مجاميع هي الأجسام المنظورة. فالإنسان إذا هو مجموعة من الذرات المتعددة.

المثالية

وفكر هؤلاء امتداد للمذهب الذري الذي أشرنا إليه في حديثنا. هناك مذهب الفيتاغوريين القائل: بأن الواحد هو جوهر الوجود. فالأعداد جميعها ناشئة عن الواحد. والنفوس عندهم عنصر خالد وهي أشرف وأرقى من المادة.

والجسد ما هو إلا سجن النفس المعذبة، وهي خالدة أبدية وتحاول قهر الجسد والتخلص من أدرانته كي تدرك الطهر وتسترد أكسيرها المقدس الأول لتعود شعلة من نار مقدسة كما كانت في السابق. والعمر الواحد في رأيهم لا يكفي للخلاص والظهر. فلا بد من أعمار متعاقبة في الأرض يتيسر فيها للنفس أن تتخلص من بقايا الجسد. من هنا إيمانهم بمبدأ التناسخ، وعليه يصبح الموت سبيلاً إلى بعث جديد وحياة جديدة، مبدأ الرجوع الأبدي.

فنرى هنا أن المذهب المثالي يوحد الإنسان بالإله. والشر في نظرهم في الإنسان ينسب إلى المادة، وليس لطبيعته الروحية الصرفة. النفس في الإنسان كما قلنا صدف في جسده وهي خير خالد، أما الجسد فشر وفان. ويصبح الإنسان كاملاً عندما يتحرر من جسده. والإنسان الحقيقي عندهم هو في الروح أما الإنسان الزائف فهو في الجسد.

وهذا تماماً عين ما قالت به الأفلاطونية المحدثه والمذاهب الغنوصية إجمالاً.

الفكر الحديث

داروين: صاحب نظرية النشوء والارتقاء. يعتبر داروين أن الإنسان تطور عبر السنين من درجة إلى درجة وخطوه خطوة. من الأميبا إلى الاسفنج إلى الحيوانات الرخوية إلى الحيوانات القشرية إلى الفقريات إلى الأسماك إلى الزواحف إلى الطيور إلى الثدييات إلى أعلى رتبة آدمية. فالكائنات بما فيها الإنسان في رأيه، انحدرت من أصل واحد ثم تباينت نتيجة الظروف والبيئات. فجاء تشديده في الإنسان على الناحية الحيوانية.

هيجل: يرى هذا الإنسان على أنه حيوان ذو جهاز عصبي مركزي أكثر تقدماً من بقية الحيوانات.

فويرباخ: مادي المذهب وصاحب نظرية الإسقاط Projection القائلة: بأن عبادة الإنسان لله ما هي في الحقيقة سوى عبادة الإنسان ذاته. فهو يعبد تصورات وأفكاره، فإلهه هو مجرد أشواق وتمنيات الإنسان. فالإنسان في هذه الحالة هو الله. وقد أوضح فكرته هذه بقلبه الآية الكتابية إلى التالي: أن الإنسان خلق الله على صورته. كما أن الإنسان عنده هو حصيلة ما يأكل.

فرويد: الإنسان عنده مجرد مجموعة من غرائز الجنس.

برنارد رسل: الإنسان هو نتاج تنسيق صدفي للذرات. وهو يتفق مع ديمقريطس.

ماركس: الإنسان هو مجرد حيوان اقتصادي.

فنجذ أن كل هؤلاء الفلاسفة وغيرهم ارتووا من نبع واحد ومن قاعدة واحدة أخذوا أفكارهم، هو ذاك المعبد الوثني «دلف» الذي كتب فوق باب مدخله العبارة التالية «اعرف نفسك بنفسك». فاتخذوا الإنسان أو بالاحرى عقولهم قياساً لهم، كأنه أفضل وأكمل قياس، فإذا به هو مجرد ذرات فارغة. ولم يصلوا إلى عمق الإنسان ولم يلاحظوا فيه النفحة التي نفحها الله فيه، والسر في الإنسان يكمن في تلك النفحة الإلهية فيه التي رفعته إلى أسمى من التراب حتى ولو أن اسمه مقرون بالتراب.

الرأي المسيحي

نجده لا هو طبيعي ولا بمثالي. الإنسان في العقيدة المسيحية ناجم عن فكرة الله كخالق، والإنسان كمخلوق. كما نجد الإنسان من أسمى وأرفع خلق الله وهو ذو قيمة كبيرة في عيني الله. فعلياً إذاً أن نفس طبيعة الإنسان ومصيره من جهة نظر الله. فإلهه هو المقياس وعندما نتخذ قياساً لنا ونقف أمام الكمال المطلق، نصرخ مثل العشار قائلين: «اللهم ارحمنا نحن الخطاة». وتحويل مثل إشعياء عندما اتضحت له نفسه وبانت حقيقتها في الحضرة الإلهية عندما صرخ: «وَيْلٌ لِّي! إِنِّي هَلَكْتُ، لِإِنِّي إِنْسَانٌ نَجِسٌ الشَّفَتَيْنِ»

قال مودي مرة: إنه عند شروق الشمس وعندما أعطي ظهري لها أرى شبحي على الأرض عظيماً. وكذلك عند غروبها. أما إذا وجهت نظري إلى الشمس فلا أرى إلا نور الشمس، ولا أعود أرى نفسي.

وهكذا الأمر روحياً، فعندما نولي ظهورنا لنور الشمس نبدو أمام أنفسنا كباراً وعظاماً. ولكن إذ ننظر إليه كشمس البر لا نعود نرى أنفسنا بل نراه وحده

في سفر التكوين نجد التشديد هناك على أن الإنسان فريد من نوعه، كما أنه آخر الخليقة في ترتيب الكائنات والمخلوقات. وهنا يمكنني أن أشبه الله بالرسام الفنان المبدع في خلقه. فبعدما أحسن وأتقن في الابداع وانتهى من عمل الخلق وكان كل شيء حسناً ورائعاً وخبلاً يجذب الأبواب، يضع الله على الطرف الأسفل من اللوحة للعمل الفني الذي أبدع فيه إمضاءه، ليعرف عن نفسه من خلال هذا الإمضاء. فاللوحة بدون إمضاء تبقى مجهولة، والإنسان في هذه الحال هو أداة التعريف. فكما أن الإمضاء على اللوحة يعطي الفنان الكرامة والمجد، هكذا هو الإنسان. فهو ليمجد الله وليعرف به أنه الخالق الصمد. فلا يمكننا أن نتأمل في جمال الكون دون أن نقرأ اسم الله الذي هو الإنسان الذي وجد ليمجد وليتمجد الله فيه ومن خلاله. إن سفر التكوين يزخر بالتفاصيل عن الإنسان، إذ نجد هناك أن الإنسان من الله، فهو مثل الله على صورته.

ولو لم يكن الإنسان ذا قيمة في عيني الله لما أولاه كل هذا الاهتمام وهذه العناية. وها هو أيوب من شدة الاستغراب يسأل الله قائلاً: «مَا هُوَ الْإِنْسَانُ حَتَّى تَعْتَبِرُهُ وَحَتَّى تَضَعَ عَلَيْهِ قَلْبَكَ» ﴿أيوب 7: 17﴾. الإنسان له مكانة رفيعة عند الله. هو كما قال أيوب في قلب الله، بمعنى تفكير الله يدور حول الإنسان. وما خطة الله للخلاص إلا دليل على اهتمام الله بنا.

الإنسان في الفكر المسيحي نجده بأن الله خلقه في أحسن تقويم، ثم سقط هذا الإنسان بمحض إرادته إلى أسفل سافلين، ثم نجد أن الله ذاته يمد يده لانتشال هذا المسكين ليرفعه إلى حضرته. كما نجد أن الله يفوض الإنسان لتكون له سيطرة محدودة على بقية المخلوقات الأخرى الأقل مستوى. نقرأ في سفر التكوين 1: 26 و 27 «نَعْمَلُ الْإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا، فَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ، وَعَلَى كُلِّ الْأَرْضِ وَعَلَى جَمِيعِ الدَّبَابَاتِ الَّتِي تَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ. فَخَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ اللَّهِ خَلَقَهُ. ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ».

فما هي إذاً صورة الله؟ وما هو الشبه إذاً؟ وهل صورة الله في الإنسان هي قدرته على الفعل؟ أم هي المواهب العقلية عند الإنسان أم هي مشابهة أخلاقية روحية؟

تشير اللفظتين العبرانيتين

צלם

زلم

דמות

دموث

فالأولى معروفة في العامية اللبنانية وتعني صورة، هيئة، شكل. واللفظة الثانية دموث تعني شبه وتشير ربما إلى الانتصاب.

صورة الله في الإنسان تتضمن سيادته على المخلوقات السفلى وهذا واضح في تكوين 1 ومزمور 8 : «فَمَنْ هُوَ الْإِنْسَانُ حَتَّى تَذْكُرَهُ وَابْنُ آدَمَ حَتَّى تَفْتَقِدَهُ! وَتَنْقُصَهُ قَلِيلاً عَنِ الْمَلَائِكَةِ، وَبِمَجْدٍ وَبَهَاءٍ تُكَلِّلُهُ. تُسَلِّطُهُ عَلَى أَعْمَالِ يَدَيْكَ. جَعَلْتَ كُلَّ شَيْءٍ تَحْتَ قَدَمَيْهِ» ﴿مزمور 8: 4-6﴾.

هناك من ميّز بين الصورة «زلم» والشبه «دموث». كإريناوس الذي رأى الصورة في قدرة الإنسان العقلية من تفكير وإرادة واختيار واعتبر الشبه مشابهة الإنسان لله مشابهة أخلاقية روحية حقيقية. ومن هنا جاء الفكر الكاثوليكي، أن الإنسان يفقد شبهه بالله بالخطية إلا أنه لا يفقد صورة الله. فأدم فقد بعض المواهب الفائقة الطبيعة عند السقوط أي الشبه ولكن ليس الصورة، أي مواهبه العقلية التي ظلت سالمة بالرغم من الخطية.

يرى البعض الآخر أن صورة الله في الإنسان كانت في كماله الأدبي الأخلاقي وفي البساطة والبراءة قبل السقوط، بيد أن تكوين 9: 6 ينبذ هذه الفكرة: «سَافَكَ دَمَ الْإِنْسَانِ بِالْإِنْسَانِ يُسْفِكُ دَمَهُ. لِأَنَّ اللَّهَ عَلَى صُورَتِهِ عَمِلَ الْإِنْسَانَ». فمن هنا يتضح لنا أن الصورة لم تُفقد بعد السقوط.

كما نجد جون كالفن في عقيدته ﴿البقية﴾ القائلة إن جزءاً من الصورة أي صورة الله قد حفظت.

العهد القديم يشير إلى صورة الله في الإنسان كأنه لا يزال حائزاً عليها، فلا يعلن العهد القديم فقدان هذه الصورة وفي العهد الجديد لدينا افتراض أنها فقدت وتحتاج إلى الاسترداد في المسيح يسوع، حيث نقرأ في 2 كورنثوس 3: 18 «وَنَحْنُ جَمِيعاً نَظَرِينَ مَجْدَ الرَّبِّ بَوَجْهِ مَكْشُوفٍ، كَمَا فِي مِرَاةٍ، نَتَغَيَّرُ إِلَى تِلْكَ الصُّورَةِ عَيْنِهَا، مِنْ مَجْدٍ إِلَى مَجْدٍ، كَمَا مِنَ الرَّبِّ الرُّوحِ».

فالعهد القديم نجده يعلن لنا أن صورة الله في الإنسان لم تفقد ولا يمكن أن تفقد، لأن الإنسان لم يزل مسؤولاً أمام الله. ولكن من ناحية أخرى فإن الصورة فقدت حسب مفهوم العهد الجديد، لأن الإنسان لم يحقق الغرض الذي خلق من أجله، وذلك ليمجد ولتكون له الصلة القوية بالله. فالصلة التي انقطعت بين الله والإنسان أُعيدت لنا في المسيح يسوع، حيث المسيح جاء مصالحاً العالم لنفسه. فصورة الله في الإنسان في عقيدة العهد الجديد تظهر من وجهة نظر الفداء في عمل المسيح الكفاري. فمن خلال عمل الصليب نجد أن الصورة فقدت وفي المسيح تُعاد إلى الإنسان.

إن صورة الله في الإنسان تظهر في كون الإنسان ثميناً وذا قيمة كبيرة في عيني الله، وهذا ظاهر:

1. من قضية الخليقة في العهد القديم.

2. في عدم حكمه النهائي بدينونة الإنسان كما أدان الشيطان.

3. من العهد الجديد إذ أظهر الله حبه للإنسان من خلال ابنه يسوع الذي قدم فدية لخلاص الإنسان. فنجد أن الله دائماً يسعى لاسترجاع الإنسان إليه.

4. الإنسان أفضل من التقاليد الدينية وأسمى من الشريعة.

«أَلَسَّبْتُ إِنَّمَا جُعِلَ لِأَجْلِ الْإِنْسَانِ، لَا الْإِنْسَانُ لِأَجْلِ أَلَسَّبْتُ» ﴿مرقس 2: 27﴾. الإنسان في نظر الله ذو قيمة لا محدودة. وقد دفع الله من أجل استرداده ثمناً لامحدوداً لأجل فدائه ولكي تُستعاد فيه صورة الله. وترجع تلك العلاقة الحميمة التي فقدت بسبب الخطية ليتمجد الخالق في خلقه، لأن الإنسان تاج خليقته وهو إمضاء سيد الخلق، فيه يتمجد ويتبارك الله. فهل عرفت أين هي

صورة الله فيك.